ماهية الشعر عند الحسن بن رشيق

د/ عبد الله خنشالي - جامعة باتنة-

تمهيد:

هذه محاولة لتتبع ماهية الشعر في التراث المغربي القديم، كنوع من التعريف بجهود المغاربة في مجال التنظير النقدي، وهي جهود متنوعة تبين مدى إسهاماتهم في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية، في شتى مجالاتها، منذ القرون الأولى. إن إبداعهم في مجال الأدب والنقد -رغم جدة عهدهم به- ليبين نبوغهم المبكر في ذلك. ويعد ابن رشيق من أوائل الشخصيات المبدعة في ذلك بعد أستاذه عبد الكريم النهشلي. ومن القضايا النقدية الأولى التي عني بها النقاد المغاربة البحث في ماهية الفنون الأدبية، وفي مقدمتها البحث في ماهية الشعر ودوره، وهي القضية التي سأحاول عرض آراء ابن رشيق فيها من خلال كتابه" **العمدة"**،لأنه الكتاب الأكثر -من كتبه الأخرى[1] - تجسيدا لآرائه النقدية ونظراته إلى الشعر كفن. قال في الغاية من تأليفه وتسميته: "ووجدت الناس مختلفين فيه [في الشعر] متخلفين عن كثيرمنه: يقدمون ويؤخرون، وُيقلون ويكثرون، قد بوّبُوه أبوابا مبهمة، ولقبوه ألقابا متهمة، وكل واحد قد ضرب في جهة، وانتحل مذهبا هوّ فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه، فجمعت أحسن ما قاله كلّ واحد منهم في كتابه؛ ليكون (العمدة، في محاسن الشعر وآدابه)."[2]

حـد الشـعر:

قال في التعريف بالشعر معتمدا لفظة (الحد) التي تعني الركن أو الماهية أو الحاجز الذي يفصله و يميزه عن غيره من فنون القول: "الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حد الشعر..."[3]

الملاحظ على التعريف أنه تضمن عنصر النية، الذي أراد به ابن رشيق إخراج بعض الكلام الذي توفر فيه الوزن والقافية ولكنه لا يعد شعرا، لعدم تحقق القصد، وقد علل ذلك بقوله: "لأن من الكلام موزونا مقفّىً، وليس بشعر، لعدم القصد والنية كأشياء اتزنت من القرآن ومن كلام النبي ﷺ، وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر، والمتزن ما عرض على الوزن فقبله..."[4]

هذا حد الشعر من حيث الشكل أو القالب، وهو حد متفق عليه، يصدق على الشعر الجيد و الرديء باستثناء تأكيد ابن رشيق على عنصر القصد أو النية، فهل من تعريف آخر يصدق على الشعر الجيد دون غيره؟

روافد الشعر:

أرى أن التعريف الحقيقي لجوهر الشعر يستشف من تشبيهه البيت الشعري بالبيت المُعد للسكن قال: "والبيت من الشعر كالبيت من الأ بنية، قراره الطبع وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدربة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون، وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين، والأمثلة للأبنية،أو كالأواخي[5] والأوتاد للأخبية، فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر، فإنما هي زينة مستأنفة، ولو لم تكن لا ستغنيَ عنها"[6].

إن الطبع هو الجوهر والحدّ الذي يفصل بين الشعر الأصيل والزائف، لأن الطبع ضد الافتعال والتصنع، أو لنقل أنه الملكة أو الاستعداد لتلقي الإلهام أو الوحي أو الهاجس الذي يفعم الشاعر بالإبداع، فينساب الشعر عن خواطره انسياب الماء الزلال.

وبعد الطبع الذي عدّه ابن رشيق الأساس المعوّل عليه تأتي الرواية التي هي بمثابة المَحَك للطبع، لأن رواية الأشعار تقوّي الطبع وتوجهه، وتطلع الشاعر على مختلف الأساليب الشعرية، فهي بمثابة المدرسة التي تتولى توجيه المواهب وتشكيلها، وقديما جُعلت شرطا من شروط الفحولة، أو هي أساسها، والفحولة أعلى منزلة قي طبقات الشعراء.

قال ابن رشيق: "فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضُل أصحابَه برواية الشعر ومعرفة الأخبار، والتلمذة بمن فوقه من الشعراء، فيقولون: "فلان شاعر رواية، يريدون أنه إذا كان رواية عرف المقاصد، وسهُل عليه مأخذ الكلام ، ولم يَضِقْ به المذهب، و إذا كان مطبوعا لا علم له ولا رواية ضَلّ."[7] وقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل فقال: "هو الراوية يريد أنه إذا رَوَى استفحل".

يؤكد هذا القولَ قولُ الأصمعي "لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار و يعرف المعاني"[8]، هكذا نظر الناقد إلى الرواية و دورها في تأصيل الطبع و تقويته في العملية الشعرية، فهي المحك له.ودعم رأيه في أهمية تلك الروافد بقول القاضي الجرجاني: "..إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز،... "[9]

ثم بعد الرواية يكون العلم أي الإلمام بالمعارف على اختلاف أنواعها، كالعلم بأيام العرب، وأنسابها، ومشاهيرها، وحِكمها، وأمثالها، وكعلم الغريب والنادر والمتداول في لغتها، والعلم بالأعراف والعقائد وأحوال البلدان، وغير ذلك من المعارف التي يعتمدها الشاعر في شعره. وهي التي أهلت هذا الفن ليقول فيه عمر بن الخطاب -

رضي الله عنه-: "الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه."[10] وحفي بالشاعر أن يكون في مستوى هذا التشريف.

الرافد الرابع من روافد الشعر الجيد، الدربة والمحاولة، فليس يكفي الطبع وحده، ولا الرواية والعلم، وإنما يجب أن يدعم كل ذلك بالدربة والقصد الخالص لقرض الشعر، والاقتداء بطريقة القدماء، ممن كان لهم فضل السبق والريادة. وانطلاقا من رافد الدربة التي تكسب المتدرب مهارة، وحَذقا نعتَ القدماء الشعر بالصناعة. قال الجاحظ: "فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[11]. فالدربة على الشعر كالدربة على الصناعات الأخرى.

لقد تميزت مواقف ابن رشيق النقدية بالموضوعية ودقة التحليل ورعة التمثيل وسوق الشواهد، فجمع بذلك بين النقد النظري والنقد التطبيقي. كما تميز بالأمانة العلمية حيث يذكر الشائع من الآراء العلماء في كل قضية يعرضها كالجاحظ (ت 255هـ)، وابن طباطبا (ت322هـ)، والآمدي (ت370هـ)، والقاضي الجرجاني (ت392هـ). وغيرهم. هذه هي العناصر الأساسية المكونة للشعر.

وحدة البيت:

بما أن البيت هو اللبنة الأساسية في هرم القصيدة الشعرية، فما يقال عنه يقال عن القصيدة. قال ابن رشيق: "ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيا على بعضِ وأنا أستحسن أن يكون كلّ بيت قائما بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير إلا في مواضع معروفة كالحكايات..."[12] يقول في هذا المجال عزالدين إسماعيل: "أما تقدير العرب للقصيدة من حيث بنيتها، وتركيبها فقد كان متأثرا بمفهوم وحدة البيت، ولم يتصوروا أن وحدة الشعور هي التي ينبغي أن تتحكم في هذه البنية."[13]

لا يجب أن ُيفهم قول ابن رشيق على أنه ضد الوحدة الشعورية في وحدات القصيدة، رغم استقلالية كل بيت ظاهريا، فثمة ترابط بين تلك المعاني. ونتيجة حرص القدماء على وحدة البيت عُدّ التضمينُ ضعفا في النظم وعيبا من عيوب الشعر، خصوصا إن تعلق بلفظة القافية. يقول ابن رشيق في ذلك :" ومما يجب أن يراعي في هذا الباب : الإقواء والإكفاء، والإيطاء، والسّناد، والتضمين*، فإنها من عيوب الشعر"[14]، ثم يقول عن التضمين: "والتضمين: أن تتعلق القافية أو لفظة مما قبلها بما بعدها كقول النابغة:

وهمْ وَردوا الجِفَارَ على تميمٍ وهم أصحابُ يومِ عُكاظَ إنّي
شهدتُ لهم مواطنَ صالحاتٍ وثِقتُ لهم بحسنِ الظنِّ منّي

ويكون التضمين أقل عيبا إذا لم يتعلق بلفظة القافية كقول كعب بن زهير:

ديّارُ التي َبتّتْ حِبالي وَصَرّمَتْ وكنتُ اذا ما الحبلُ من خُلةٍ صُرِم

فزعْتُ إلى وجناءَ حَرْفٍ كأنّما بأقْرَابِها* قارٌ إذا جلدُها اسْتحَم"[15]

إن الحديث عن البيت المفرد أمر شائع حتى عند كبار النقاد القدماء، يقول محمد حسين عبد الله في معرض حديثه عن علاقة اللفظة في البيت بجارتها: "إن اهتمام عبد القاهر اتجه إلى البيت أو الأبيات القلائل، ولم يحدث أن تناول قصيدة كاملة في إطار منهجه الخاص"[16]. ثم حاول تفسير تلك الظاهرة، فردها إلى أحد الاحتمالين، أحدهما: أن عبد القاهر تأثر بالطريقة السائدة في عصره، وثانيهما: أن الشعر العربي يصلح للبيت أو الأبيات التي تمثل الوثبة التي تجلي الوحدة المزاجية أو الشعورية.

اللفظ والمعنى:

أهمية المعنى: إن البيت الشعري كبناء لا قيمة له ما لم يتوفر على معنى يستظرف، مثله في ذلك مثل البناء العمراني قيمته تتمثل في ساكنيه، فإن كان قفرا خلاء فلا قيمة له مهما تكن روعته، إلا ما كان من استحضار ذكرياتهم وتخيل أشخاصهم. يؤكد هذا القول ابن رشيق بقوله: "وإنما سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير."[17]

هذه من أعمق الرؤى المتعلقة بالشعر والشعراء، وهي تحمد لابن رشيق كناقد من جهة وكشاعر من جهة ثانية. إذ جل سابقيه جعلوا الشعر ماثلا قي المثل السائر والاستعارة الرائعة، وفي التشبيه الواقع، فهي –عندهم- العناصر الأساسية المشكلة للشعر الجيد، وفي انعدامها تبقى التسمية من باب المجاز.

أما ابن رشيق فأضاف إليها عناصر أخرى جعلها تمثل جوهر العملية الشعرية، فرؤيته بذلك أعمق وفهمه أوسع، منها التوليد والاختراع في باب المعاني، والإبداع في صياغة العبارات، والاهتداء إلى تفتيق طاقات بعض الألفاظ. هذه إلى تلك مجتمعة هي الشعر، وما سواها من أوزان وقواف إنما هي حلي. وهذا إدراك لحقيقة الشعر وجوهره جدير بالتنويه.

يمكن اعتبار هذه المفاضلة التي أجراها ابن رشيق بين العناصر المكونة للشعر دليلَ عمقِ فهمه ووعيه للشعر ونقده؛ وعيٌ كان لملكة الشعرِ التي وُهِبها فضلٌ عليه. أشاد بذلك العديد من النقاد من بينهم رجاء عيد. حيث قال: "ومع ذلك نحمد لابن رشيق

تفهمه للشعر في قوله: "وإنما سمي الشاعر شاعرا، لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني... كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة."[18] ومن بينهم بشير خلدون بقوله -في سياق حديثه عن سطحية رؤى النقاد السابقين لابن رشيق- : "بينما هو -أي ابن رشيق- أبعد نظرة وأكثر تفهما وعمقا لمفهوم أو مدلول الألفاظ والمعاني..."[19].

إن اللفظ هو أول العناصر المكونة للشعر عند جميع النقاد واللغويين القدماء، وابن رشيق واحد من بين أولئك النقاد الذين تناولوا اللفظ مقترنا بالمعنى، فتشكلت بذلك ثنائية اللفظ والمعنى. وقد أدرك ابن رشيق مدى الترابط القائم بينهما، لدرجة لا تسمح بالانفصام والفصل، وهذه رؤية صائبة، ورأي سديد، لأن الفصل بين اللفظ والمعنى ضرب من الجدلية العقيمة قال في ذلك: " اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سَلِم المعنى واختل بعضُ اللفظِ كان نقصا للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح وكذلك إنْ ضعُف المعنى، واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يُخَيّل إلاّ من جهة اللفظ، وجَرْيُهُ فيه على غير الواجب قياسا على ما قدّمْتُ من أدواء الجسوم والأرواح فإن اختلّ المعنى كلّه و فسد بقي اللفظُ مواتا لا فائدة فيه وإن كان حسنَ الطلاوةِ في السّمع وكذلك إن اختل اللفظُ جملة و تلاشي لم يصحْ له معنىً، لأنا لا نجد روحا في غير الجسم البتة."[20]

هذا الفهم وهذا التحليل ليدلان على عبقرية ابن رشيق كأديب ناقد وشاعر أدرك جوهر العملية الشعرية التي من أهم عناصرها اللفظ والمعنى: متفاعلين ومتلازمين. والتمثيل الذي ساقه حي يشخص رؤيته و فهمه، ويقربهما من القارئ.

كما يدل هذا الحسم - في قضية تُعد من القضايا الجوهرية في النقد الأدبي عند العرب - على سبق ابن رشيق لعصره، حيث أن بحث القضية تواصل عبر قرنين أو أكثر ليؤكد بنسبة غالبة ما ذهب إليه ابن رشيق. يقول محمد عبد المطلب: " لقد شغلت قضية اللفظ والمعنى النقاد العرب، فتناولوها بالدراسة، واتجهوا فيها اتجاهات متباينة، وإذا كانت هذه القضية قد احتلت مكانتها البارزة لدى النقاد، وعلماء البيان منذ بشر بن المعتمر والجاحظ إلى نهاية القرن الخامس، فإننا نجدها قد احتفظت بمكانتها خلال القرنين السادس والسابع وازدادت الاهتمام بها، واتخذت مسارات جديدة لم يطرقها الدارسون السابقون، وقل أن نجد ناقدا لم يتعرض لها في مؤلفه."[21]

إن استمرار قضية اللفظ والمعنى كل هذه المدة لدليل جوهريتها في العمل الأدبي. يقول عبد الوهاب الخزرجي، أحد نقاد القرن السابع الهجري: "إذا أردت أن تستوفي أقسام المحاسن. فأرسل المعاني على سجيتها ودعها تطلب لأنفُسِها الألفاظَ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتسِ إلا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها"[22].

هذه دعوة إلا التلقائية والاستسلام للطبع الأصيل في عملية الإبداع وعدم التشويش عليه بالتصنع، في اختيار الألفاظ وإقحامها في العبارات. لأن الطبع لا يفرق بين عناصر التعبير في عملية الخلق الأدبي. هذا الإتكال على الطبع إن يصلح مع المطبوعين من الشعراء المتمرسين في القول الشعري فقد لا يصلح مع الشعراء الناشئين أو المائلين بالفطرة إلى التصنع في القول.

إن أقوال ابن رشيق في القضية يفهم منها التوسط والتوفيق بين المذهبين "اللفظ جسم روحه المعنى" وهو مذهبُ كلٍّ من وَعَى عملية الإبداع الأدبي عبر العصور وعند مختلف الأمم والشعوب.

مما يدل على أصالة رأي ابن رشيق في هذه القضية أن للأديب الناقد الفرنسي (فلوبير) قول مماثل لقول ابن رشيق. قال -مخاطبا بعض أصحابه-: "تقول إنني شديد العناية بصورة الأسلوب، والصورة والفكر كالجسد والروح، هما في رأيي شيء واحد، وكلما كانت الفكرة جميلة، كان التعبير عنها أجمل، إن دقة الألفاظ من دقة المعاني هذه هي تلك."[23]

الفرق القائم بين قول ابن رشيق وبين قول (فلوبير) هو فرق صوري؛ فابن رشيق تكلم عن الكلمة وعلاقتها بالمعنى. في حين تكلم (فلوبير)عن الأسلوب وعلاقته بالفكرة، والمتمعن يدرك أن المعنى الأدبي الذي عناه ابن رشيق بعبارته لا يستفاد من اللفظة المفردة، إنما يستفاد من العبارة، والعبارة هي الأسلوب.ومن ثم فمضمون القولين متماثل، وإن عبر الأول عن رأي ناقد عربي قال بالتوسط بين الطبع والصنعة في العملية الشعرية، وعبر الثاني عن ميل صاحبه إلى الصنعة فيها.

لقد تميز نقد ابن رشيق بميزة الموضوعية التي منها الأمانة في إسناد ما اقتبسه من أراء إلى أصحابها. من ذلك إشادته بمضمون صحيفة بشر بن المعتمر التي تعد من أقدم ما قيل في النقد عند العرب. قال في ذلك: "مما لا يسع تركه في هذا الموضوع صحيفة كتبها بشر بن المعتمر، ومنها: "ومن أراغ [أراد] معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الكريم اللفظ الشريف.[24]

ومن وجوه موضوعيته إيراده لأهم الآراء المتعلقة بالقضية موضوع البحث. مما يدل على سعة اطلاعه. يقول في قضية اللفظ والمعنى: "ثم للناس فيما بعد آراء ومذاهب، منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته وَوُكْدَهُ، وهم فرق؛ قوم يذهبون إلى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب، من غير تصنع كقول بشار:[25]

إذا ما غَضِبْنا غضبةً مُضَرِيّةً هَتكْنا حِجابَ الشمسِ أوْ قطَرَتْ دَمًا
إذا ما أعَرْنا سَيِّدًا مِن قبيلةٍ ذرَى مِنبَرٍ صَلّى عَـلينا وسَلّـمَا

فقد رأى أن هذه الجزالة وافقت موضوعها، لأنها أليق بأشعار الفخر والحماسة.

أما إن اعتُمِدَتْ في النسيب والتشوق والرثاء فقد أخطأت مكانها، ورآها من مذهب الطائفة التي وصفها بقوله: "وفرقة أصحاب جَلبةٍ وقعقعةٍ بلا طائلِ معنىً إلا القليل النادر، كأبي القاسم بن هانئ فإنه يقول في أول مذهبته:

أصاخَتْ فقالت: وَقْعُ أجْرَدَ شَيْظَمِ وشامَتْ فقالتْ: لمْعُ أبْيَضَ مِخْذَمِ
ومَا ذَعُرَتْ إلاّ لِجَرْسِ حُلِيِّها ولا رَمَقتْ إلاّ بُرًى فـي مُخَدّمِ

وليس تحت هذا كله إلا الفساد وخلاف المراد."[26]

إن ابن رشيق يرى أن للفخامة مواطن تحسن وأخرى تنبو، والشاعر المطبوع يُهدَى إلى ذلك، فبشار بن برد واءمته فخامة اللفظ وجزالة الأسلوب؛ لأن الموقف تطلب ذلك. أما ابن هانئ فقد أخطأ العرف وباين الذوق، فأفسد المعنى، كل ما هناك امرأةٌ جاهلة أذعرها جَرْسُ ولمعانُ حليها فتوهمت أوهاما. والذي جرّ الشاعر إلى هذا الغلط ؛ إخطاء القصد -على شهرته- وُلوعُهُ بالتصنع. قال فيه ابن رشيق:" وكان عند أبي القاسم -مع طبعه- صنعة .فإذا أخذ في الحلاوة والرقة، وعمل بطبعه وعلى سجيته أشبه الناس ودخل في جملة الفضلاء، وإذا تكلف الفخامة وسلك طريق الصنعة أضر بنفسه وأتعب سامع شعره"[27].

رأي يلتقي في مجمله مع آراء كثير من نقاد شعر ابن هانئ، كمعاصره ابن شرف القيرواني (ت 460هـ) الذي رأى هو الآخر أن تكلف الجزالة مضرة بشعر ابن هانئ، حيث قال: "وأما ابن هانئ الأندلسي ولادةً القيروانيّ وفادة وإفادةً، فرعديُّ الكلام، سرديّ النظام متين المباني، غيرُ مكين المعاني يجفو بعضها عن الأوهام..."[28] إلى أن قول ابن رشيق أكثر وضوحا وتفصيلا من قول ابن شرف.

إن موقف ابن رشيق من الصنعة موقف معتدل تجلت فيه موضوعيته كناقد بصير بحيثيات الشعر فهو لا يرفضُ الصنعة كُلّيـةً بَلْ يريدها بمقدارٍ. يقول في ذلك:"واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين في القصيدة بين

القصائد، ُيستدلّ بذلك على جودة شعر الرجل، وصدق حسه وصفاء خاطره، فأما إن كثر ذلك فهو عيبٌ"[29]. ورأى الصورتين في شعر الطائيين؛ فصنعة البحتري مستطرفة لاقتصاده فيها، بينما أفرط أبو تمام، فقَبُحتْ صنعتُهُ وأرْهَقتْ.

الوزن:

يقول عن الركن الثاني من أركان الشعر الذي هو الوزن :"الوزن أعظم أركان حد الشعر، وأولاها خصوصية وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة، إلا أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيبا في التقفية لا في الوزن، وقد يكون عيبا نحو المخمسات وما شاكلها"[30].

إن اعتبار الوزن أحد أهم العناصر التي يتألف منها الشعر أمر مطرد في النقد القديم وحتى الحديث، وهو يدخل كعنصر أساسي في تشكيل التجربة الشعرية يقول الناقد الأمريكي (ولك wolk): "الصوت والوزن يجب أن يدرسا من حيث هما عنصران في مجموع العمل الفني غير منفصلين عن المعنى."[31]

في نفس المعنى - أساسية الوزن- يقول محمد حسن عبدالله: "لقد اعتبر كولردج عنصر الموسيقى في الشعر أقوى دليل على أن الشاعر يولد ولا يصنع، وهذا يعني أن الموسيقى التي يعنيها شيء أدق من مجرد تطويع المعاني وتراكيب الكلام لقوانين العروض والقافية."[32]

إن مثل هذا الفهم لطبيعة الوزن وقيمته في البناء الشعري قليل في نقدنا القديم، إلا أن تعظيم ابن رشيق للوزن قد يشتم منه مثل هذا، فتعظيمه للوزن ليس مطلقا، وإنما هو مقصور على الشعر الجيد الذي تفاعلت عناصره تفاعلا خلاقا، لأنه سبق أن أشار إلى أن الشعر الذي لا ينتظم المثل السائر والاستعارة البديعة والتشبيه الجيد، وتوليد المعاني فليس لقائله إلا فضل الوزن وليس عندي بفضل. هكذا قلل من قيمة الوزن مجردا من عناصر الشعر الأساسية. وهو فهم يستثني ابن رشيق مما قد وَصَفَ به مصطفى ناصف فهْمَ القدماء لعنصر الوزن. "والموسيقى في نظر الباحثين المتقدمين جميعا، ومن بينهم عبد القاهر، ضرب من التنظيم السار الخالي من الدلالة على الرغم من هذا النشاط العصبي أو الوجداني الذي يصحبه، ومن هنا ظلوا يعتبرونه زينة أو عنصرا خارجيا عن المعنى"[33].

إن ابن رشيق يرى أن الوزن بالنسبة إلى المطبوعين من الشعراء إلهام وموهبة، في حين يحتاج ضعاف الطبع إلى الاستعانة عليه بالتعلم والدربة. وهو رأي تؤكد صدقه جميع المراحل التي مر بها الشعر العربي قبل مراحل التأليف في المعارف المختلفة ومنها العروض. يقول: "والمطبوع مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان، وأسمائها،

وعللها؛ لنبو ذوقه عن المُزَاحَف منها والمستكره. والضعيفُ الطبعِ محتاج إلى معرفة شيء من ذلك يعينه على ما حوله من هذا الشأن."[34]

ومن الأمور المتعلقة بالأوزان الزحاف، الذي هو نوع من الخروج على أصل بعض التفعيلات. قال عن ذلك: "ومنه - أعني الزحاف- ما يستحسن قليله دون كثيره، كالقَبَلِ اليسير والفلج واللثغ، ومنه قبيح مردود لا تقبل النفس عليه،كقبح الخلق واختلاف الأعضاء، في الناس وسوء التركيب."[35]

والزحاف بأنواعه نوع من الرخصة لا يجب الإفراط فيه. يقول: "ولست أحمل أحدا على ارتكاب الزحاف إلا ما خف منه وخفي، ولو أن الخليل -رحمه الله- وضع كتاب العروض ليتكلف الناس ما فيه من الزحاف ويجعلوه مثالا دون أن يعلموا أنها رخصة أتت بها العرب عند الضرورة لوجب أن يتكلف ما صنعه من الشعر مزاحفا ليدل بذلك على علمه وفضل ما نحا إليه"[36].

خاتمة:

من خلال هذا العرض الوجيز لآراء ابن رشيق في بعض قضايا نقد الشعر؛ من حيث الماهية والروافد، ووحدة البيت، وإشكالية اللفظ والمعنى والوزن وهي آراء أصيلة، قدمها بأسلوب شيق مفيد، اعتمد في تقريبها من ذهن القارئ بالأمثلة الحية والشواهد المقنعة. وأرى أن أصالة آرائه تعزى إلى كونه شاعرا مقتدرا من ناحية ومثقفا ملما بما قيل في تلك القضايا من قبل النقاد السابقين له. ويقف عند بعضها بالتحليل والنقد بموضعية عالية .

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر:

1- الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د، ت).

2- الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط 3، 1964.

الفيروز آبادي : القاموس المحيط ،مطبعة مصطفى البابلي،مصر، ط2، 1952.

3- محمد بن شرف القيرواني: أعلام الكلام، منقول بإذن خاص عن الأصل بدار كتب سعادة أحمد بك طلعت، تصحيح عبد العزيز الخانجي (د،ت، ودار الطبع).

4- علي بن عبد العزيز الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت (د، ت).

5- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مطبعة مصطفى البابلي، مصر، ط 1952/2.

ب - المراجع:

1- بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام بن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

2- محمد حسن عبدالله: الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، مصر1981.

3- محمد عبد المطلب مصطفى: اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط1984/1.

4- موسى الأحمدي نويوات: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1983/3.

5- مصطفى ناصف نظرية المعنى في النقد العربي، دارالأندلس بيروت لبنان، (د.ت).

6- عزالدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

7- رجاء عيد: التراث النقدي دراسة ونصوص، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، 1983.

الهوامش:

[1] - أعني كتابيه : قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، وانموذج الزمان في شعراء القيروان.

[2]ـ الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،مطبعة السعادة بمصر،ط3/ 1964،ج1،ص16.

[3] ـ المصدر نفسه، ج،1ص119.

[4] ـ المصدر نفسه ، ص120.

[5]ـ الأواخي: مفرده الأخية عود في حائط أو في حبل يدفن طرفاه في الأرض تشد فيه الدابة.
الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر،ط1371/2هـ1952ج4ص299

[6]ـ المصدر السابق، ص 120.

[7]ـالعمدة، مصدر سابق ، ص 197.

[8] ـ المصدر نفسه، ص 198.

[9] ـ علي بن عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه،تح محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، المكتبة العصرية صيدا بيروت(د ت) ص 15.

[10] ـ ابن رشيق العمدةج1،ص28.

[11] الجاحظ : الحيوان ، تح وشرح :د.عبد السلام هارون،دار الكتاب العربي بيروت، ج3، ص131.

[12] ـ ابن رشيق: العمدة، ج1، ص261.

[13] ـ عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر العربي،القاهرة، ط3/ 1973، ص366.

[*] - الإقواء: اختلاف بين حركتي روي بيتين أو أكثر في القصيدة. * الإكفاء: اختلاف روي البيت مع روي البيت الذي يليه بحرفين متقاربين في المخرج كالنون مع اللام. *الإيطاء: هو تكرار كلمة الروي لفظا ومعنى في أقل من سبعة أبيات على المشهور.

[14] ـ ابن رشيق العمدة، ج1ص171.

[*] - السناد: اختلاف ما يجب أن يراعى قبل الروي من الحروف والحركات.وهو خمسة أقسام:اثنان منها باعتبار الحروف، وثلاثة باعتبار الحركات وهي : سناد الردف، وسناد التأسيس، وسناد الإشباع، وسناد الحذو، وسناد التوجيه. * التضمين: هو افتقار القافية إلى البيت الذي بعدها في إفادة معناها. موسى الأحمدي نويوات: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي،صفحات:411 ،415، 401، 416 ، 407.على الترتيب.

[15] ـ المصدر السابق، ص171.* القِراب الغمد أوالجفن و الأقتراب: الخاصرة أو من الشاكلة إلى مراق البطن. القاموس المحيط ،ج1ص118.

[16] ـ محمد حسين عبد الله: الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، مصر،1981،ص189.

[17] ـ ابن رشيق: العمدة، ج1،ص 116.

[18] ـ د. رجاء عيد: التراث النقدي نصوص ودراسة، منشأة المعارف بالأسكندرية، مصر1983، ،ص45.

[19] - د.بشير خلدون :الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981،ص 134 .

[20] ـ ابن رشيق: العمدة، ج1ص124.

[21] ـ د.محمد عبد المطلب مصطفى: اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، دار الأندلس،بيروت،لبنان ط1984/1،ص95.
[22] ـالمرجع نفسه،ص97.
[23] ـ المرجع نفسه، ص83.
[24] ـ ابن رشيق : العمدة،ج1،ص212.
[25] ـ المصدر نفسه ، ص124.
[26] ـ المصدر نفسه ، ص125.
[27] ـ العمدة ص125.
[28] ـ محمد بن شرف القيرواني: أعلام الكلام،منقول بإذن خاص عن الأصل بدار كتب سعادة أحمد بك طلعت ، تصحيح عبد العزيز الخانجي، ص:17 .
[29] ـ المصدر السابق، ص 130.
[30] ـ المصدر نفسه، ص 134.
[31] ـ د.عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي ، ص351.
[32] ـ د. محمد حسين عبدالله: الصورة والبناء الشعري، ص187 .
[33] د. مصطفى ناصف: نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس بيروت، لبنان ، ص 15.
[34] ـ ابن رشيق: العمدة، ج 1، ص 134.
[35] ـ المصدر نفسه، ص 139 .
[36] ـ المصدر السابق، ص 150.